أركان التوبة النصوح وشروطها

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدثنا فى الجمعة الماضية عن التوبة ، ووجوب التوبة على جميع الناس ﴿ . . وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، ﴿ . . . وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

نعم التوبة وضرورة المبادرة بالتوبة ، فإن الأعمار تنقضى سنة بعد سنة ، وشهرًا بعد شهر ،وأسبوعًا بعد أسبوع ، ويومًا بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، ولحظة بعد لحظة ، فلا بد من المبادرة بالتوبة حتى لا يفجأك المرض ، أو يفجأك الموت وأنت لم تعد العدة ، ولم تهيئ الزاد .

فالحازم الكيس من تأهب للموت قبل نزوله كما فى الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » (٣) ، وأول ما ينبغى أن يعمل به العبد لما بعد الموت : أن يتوب إلى الله توبة نصوحًا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾(٤) .

---

(١) النور : ٣١ . (٢) الحجرات : ١١ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، وابن ماجه ، وأحمد ، والحاكم ، وقال : صحيح ، ووافقه الذهبى عن شداد بن أوس ، ورمز له السيوطى بالصحة فى (الجامع الصغير)، وتتمة الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٨٦٩/٢ ، الحديث ٢٠٩٠) و(شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٣٠٨/١٤ ، الحديث ٤١١٦) ، ومعنى « دان نفسه » أى حاسبها فى الدنيا قبل أن يحاسب فى يوم القيامة وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتجهزوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يومئذ على من حاسب نفسه فى الدنيا .

(٤) التحريم : ٨ .

OBEIKAN.COM

ما التوبة النصوح ؟ :

النصوح : الخالصة من الشوائب ، التى لا غش فيها ولا دخل .

فما حقيقة هذه التوبة ؟ وما شروطها ؟ وما علائمها ؟

حقيقة هذه التوبة تبدأ بالندم ، ثم بالعزم ، وتنتهى بالإقلاع عن المعصية .

أول أركان التوبة وأعظمها : الندم ، والندم عمل من أعمال القلوب ، ليس من أعمال اللسان ولا من أعمال الجوارح ، بعض الناس يحسب التوبة أن يقول بلسانه : تبت إلى الله ، وندمت على معصية الله ، وعزمت على طاعة الله ، وألا أعود إلى المعاصى أبدًا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، يقول هذا بلسانه ، وربما جاء إلى بعض الشيوخ فقال له : يا سيدنا الشيخ توبنى ، يريد بتتويبه أن يقول هذا الكلام .

هذا الكلام لا يغنى ، لا يكفى أن تقول : نويت التوبة ، وقلبك مصر على المعصية ، بل لا يكفى أن تقول : استغفر الله ، وأنت عازم على المعصية ، وقد قالوا : الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكذابين .

توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم ، وتوبة الصادقين من أعماق قلوبهم ، وإنما تبدأ التوبة بذلك الندم ، بهذه الحسرة ، وبهذا الحزن والأسى ، بهذه المشاعر التى تكوى الإنسان كيًا .

هذا الاحتراق الداخلى هو أول التوبة ، أن يشعر بالندم على ما فات ، على ما فرط منه فى جنب الله ،على تضييعه لفرائض الله ، على أكله لحقوق الناس ، على... على ... هذا هو أول التوبة ، وقد جاء فى الحديث : « الندم توبة » (١) أى هو الركن الأعظم ، كما ورد : « الحج عرفة » (٢) أى الركن الأعظم فى الحج

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٨٢٢/٢ ، الحديث ١٩٣٢) .

(٢) رواه أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم والدارقطنى ، والبيهقى ، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمى ، قال : شهدت رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات=

OBEIKAN.COM

هو الوقوف بعرفة ، وإن كان هناك أركان أخرى ، كذلك للتوبة أركان أخرى ، ولكن أولها وأعظمها : الندم ، أن يستشعر الإنسان مرارة المعصية ، ويستحضر ذلك فى قلبه ونصب عينيه .

وهذا الندم يأتى من صحوة ، من يقظة يجدها فى قلبه ، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده ، يأتى بأدنى ملابسة ، كما قيل : من لمحة تقع الصلحة ، من كلمة يسمعها ، من موعظة مؤثرة ، من آية يتلوها أو يستمع إليها ، من موقف يشاهده ، من رؤيا يراها ، من موت لعزيز عليه ، من حادثة تقع له أو كارثة تنزل به أو بأحد يعز عليه ، فيحدث من وراء ذلك : الندم فيتوب إلى الله .

قالوا : إن أحد كبار الوزراء فى العصر العباسى مر بموكبه العظيم فى طريق ، فكان الناس يسألون : من صاحب هذا الموكب ؟ من هذا ؟ من هذا ؟ فكانت امرأة فى الطريق قالت لهم : أقصروا ، من هذا ؟ من هذا ؟ هذا رجل سقط من عين الله ، فابتلاه الله تعالى بما ترون ،تظنون أنّ هذا علامة مجد وعظمة ، هذا رجل سقط من عين الله ، فبلغ ذلك الوزير قولة هذه المرأة ، فرجع بعد ذلك إلى بيته ، واستغنى عن الوزارة ، وغير من حياته كلها بكلمة .

كلمة يمكن أن تغير الحياة ، منظر ، لو رأيت منظر جنازة أمامك ، لو رأيت أحد أصدقائك أو أقربائك وقد كان ملء السمع والبصر ، فإذا هو جثة أمامك لا يحرك ساكنًا ، ولا يستطيع شيئًا ، لو رأيت القبور وذهبت إلى وادى الموتى ، ورأيت هناك الأمراء والكبراء والوزراء وأصحاب الملايين ، أين وزاراتهم ؟ وأين رئاساتهم ؟ وأين إماراتهم ؟ وأين ملايينهم ؟

منظر واحد يراه الإنسان بقلبه لا بعينه ، يمكن أن يغير من حياته ، كلمة يسمعها وقد فتح لها قلبه ، فإذا هى تغير مجرى حياته كلها فينتقل من حال إلى حال .

رؤيا يراها بعض الناس ، كثير من الصالحين تاب بسبب رؤيا رآها فى نومه ، فغيرت من سلوكه ، وغيرت من حياته ، كما حكوا عن مالك بن دينار .

= وأتاه ناس من أهل نجد ، فقالوا : يا رسول الله كيف الحج ؟ فقال : « الحج عرفة ، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع ، فقد تم به حجه » (المقاصد الحسنة : الحديث ٣٩٤) .

OBEIKAN.COM

وعلى كل حال ، إن الإنسان عليه أن يعين نفسه ، يعين نفسه على حدوث هذا الندم ، كيف يعين نفسه ؟ يتذكر حق الله تعالى عليه ، وفضل الله تعالى عليه ، وهو فضل عظيم لا يحصيه عدّ ، ولا يحيط به حدّ ﴿ . . . وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا . . . ﴾ (١) . يتذكر آلاء الله التى تغمره من قرنه إلى قدمه ، منذ كان فى المهد صبيًا ، بل منذ كان جنينًا فى بطن أمه ، وإحسان الله إليه ، وفضله عليه ، لم يفارقه لحظة من الزمن .

يتذكر هذا ، ويتذكر بجوار ذلك ، ما يصدر منه من معصية ، خير الله تعالى إليه نازل ، وشره إلى الله صاعد ! يتحبب تعالى إليه بنعمه وهو الغنى عنه ، ويتبغض هو إلى الله سبحانه بمعصيته ، وهو أفقر شىء إليه !

يتذكر المعصية ، وشؤم المعصية ، وآثار المعصية فى الدنيا والآخرة ، فهى مجلبة الخسران ، هى البضاعة الكاسدة التى ليس من ورائها إلا البوار ، والخسار ، فى الدنيا قبل الآخرة .

ذكر الإمام ابن القيم رضى الله عنه للمعصية أكثر من مائة ضرر من الأضرار والآثار فى الأولى قبل الآخرة ، فى كتابه : (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) (٢) .

كل ما ترى من شرور فى نفسك أو أهلك أو مالك أو ولدك أو أصدقائك أو المجتمع من حولك ، كل ما أصاب الناس من فساد وانحلال ، سببه المعصية .

إن الله لا ينزل البلاء على الناس انتقامًا منهم ، بل إنما ينزل عليهم العقوبة تأديبًا

---

(١) النحل : ١٨ .

(٢) ويسمى أيضًا : الداء والدواء ، وقد ألفه ابن القيم ردًا على سؤال مفاده : « ما تقول السادة العلماء ، أئمة الدين ، رضى الله عنهم أجمعين ، فى رجل ابتلى ببلية ، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ، وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق ، فما تزاد إلا توقدًا وشدة ، فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ » ، وراح ابن القيم يشخص الداء بمهارة وحذق ، ويصف الدواء الناجح ، مستلهمًا نصوص الكتاب والسنة .

OBEIKAN.COM

لهم بما فعلوا : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

أنظروا إلى التعبير القرآنى :

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ ﴾ لا يعاقبهم بكل شىء عملوه ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢) .

تذكر شؤم المعصية . . . شؤم المعصية فى الدنيا وفى الآخرة ، إذا صبرت على آثارها فى الدنيا ، فانظر إلى آثارها فى الآخرة ، هل تتحمل عذاب القبر ؟ هل تتحمل ما فى الموقف يوم القيامة ؟ هل تتحمل ما فى جهنم والعياذ بالله ؟

تذكر الموت وسكرته ، وتذكر القبر وضمته ، وتذكر الحساب ودقته ، وتذكر الموقف وزحمته ، وتذكر الرب وغضبته ، وتذكر الجنة وما فيها من نعيم ، وتذكرالنار وما فيها من ألوان العذاب والخزى ، تذكر هذا كله .

تذكر إنك لا تستطيع أن تحتمل حر الشمس فى يوم صائف ، تذكر أنك لا تستطيع أن تحتمل لدغة مصباح تضع أصبعك عليه ، فكيف تقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة ؟ تذكر هذا كله ليعينك على أن تندم .

الإنسان العاقل إذا عرف أن شيئًا ما يضره ، ويهدده بالخطر ، فلا بد من أن يقلع عنه ، ألا ترون الإنسان الذى عاش عمره مدخنًا ، المبتلى بهذه الآفة التى تأكل المال والصحة والأعصاب ، إذا قال له الطبيب وقد أصيب بقلبه : إما أن تقلع عن التدخين ، وإما أصبحت حياتك فى خطر ، ماذا يفعل هذا الإنسان ؟ إنه لا يخاطر بحياته إذا كان عنده ذرة من عقل ، إنه يقلع عن التدخين الذى عاش وهو إلفه ، وعادته التى استمسك بها عشرات من السنين فى عمره ، وكم رأينا من هؤلاء ممن عاش أربعين سنة أو أكثر أو أقل ، أقلع عن التدخين ، لأن الطبيب قال له : التدخين مهدد لصحتك ، وخطر على حياتك .

فإذا قال طبيبك الأعظم ، إذا قال لك رسول الله ﷺ ، بل إذا قال الله تعالى

---

(١) الروم : ٤١ .

(٢) الشورى : ٣٠ .

OBEIKANI.COM

لك : إن المعاصى خطر على دنياك وآخرتك ، خطر عليك فى الحال ، وخطر عليك فى الاستقبال ، أفلا تصدق هذا الطبيب ؟ أفلا تقلع عما أنت فيه من إضاعة حق الله ، ومن التقصير فى جنب الله ، ومن إضاعة حقوق الناس ؟ هذا هو الذى ينبغى أن يستحضره الإنسان : الندم ، الاحتراق ، التحسر على ما مضى منك ، هذا هو حقيقة الندم .

وقد قال بعض الصالحين : حقيقة الندم أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى تظن أن لا قرار لك ، وتضيق عليك نفسك ، كما وصف الله تعالى نفسية أولئك التائبين فى سورة (التوبة) ، التى سميت السورة بوصفهم : سورة (التوبة) ، قال: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾ على سعتها كأن الدنيا أصبحت كأنها أضيق من حلقة خاتم ﴿ . . . وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ . . . ﴾ (١) فوقفوا على بابه مستغفرين تائبين نادمين .

هذه هى نفسية التائب الحقيقى .

ثم يأتى الركن الثانى وهو : العزم المصمم ، أن يعزم الإنسان الذى ابتلى بالمعصية ، وكل الناس مبتلون بالمعاصى ، كما قال النبى ﷺ : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » (٢) . لا يخلو أحد من الخطأ ، ولا يخلو من الذنب ، لأن الله تعالى خلقه هكذا ، لم يخلقه ملكًا مطهرًا ، ولم يجعله نبيًا معصومًا ، فسيدنا آدم عليه السلام نفسه أخطأ ، فلا عجب أن يخطىء أبناؤه .

وهنا يأتى العزم على ترك الذنب ، على اجتناب المعصية ، على أن يبدل حياته ، ويستبدل بصفحته صفحة جديدة ، الصحائف التى سودتها المعاصى ، يريد أن يملأها بأعمال صالحة ، فيترك ويقلع عن الذنب ، ويبدأ هذا بعزم . . . عزم جازم . . . عزم أكيد . . . عزم مصمم . . . إرادة قوية : ألا يعود إلى المعصية كما لا يعود

---

(١) التوبة : ١١٨ .

(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٨٢٠ ، الحديث ١٩٢٧) .

OBEIKAN.COM

اللبن إلى الضرع ، هكذا يقول العلماء ، هل إذا خرج اللبن من ضرع الناقة ، أو البقرة ، أو الشاة ، يمكن أن تعيده إليها ؟ وهكذا ينبغى أن يكون عزمه ساعة التوبة : طلاق بات بينه وبين المعصية .

أمّا إذا ظل مترددًا ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، يريد أن يتوب ولكنه يحن إلى المعصية ، ما زال يشعر بحلاوة المعصية ، وبلذائذ المغامرات الماضية والأيام الخالية ، لا زال هناك نوع من التعلق بتلك الأيام السود ، فهذه ليست توبة ، التوبة عزم مصمم ألا يعود إلى المعصية أبدًا .

ربما يعزم عزمًا أكيدًا ومصممًا ، ولكن الإنسان ضعيف ، يحدث بعد ذلك أن يضعف وتزل قدمه ، لا يضر هذا فى التوبة .

المهم ساعة التوبة أن يكون عنده هذا التصميم المؤكد ، فإن ضعف بعد ذلك ، وأغرته نفسه ، وغره شيطانه ، وسقط فى هوة المعصية ، فلا بد من أن يستحدث توبة جديدة ، وأن يقول ما قال أبوه آدم وأمه حواء : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) . وهكذا ، كلما أحدث ذنبًا سارع إلى التوبة والاستغفار والله غفور رحيم .

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنبًا فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم اذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا آخر فاغفر لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنبًا آخر - فقال : يا رب ، إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » (٢) .

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) رواه البخارى ومسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٨٢٠ - ٨٢١ ، الحديث ١٩٢٨) .

فهو يسارع إلى التوبة ، ولن يغلق الله بابه عنه ، لقد قيل لسعيد بن المسيب عن ذلك فقال : فى ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ، إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ (١) . قال : (الأواب) الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ، لأن هذه الصيغة . . . صيغة (أواب) تدل على الكثرة، أى أنه كثير الأوبة إلى الله ، فيمكن أن يعثر ثم ينهض ، ويخطىء ثم يحاول التصويب وهكذا ، فهو لا ييأس من روح الله ، ولكن المهم كل الأهمية أن يكون عند التوبة عازمًا ومصممًا على عدم العودة ، هذا ركن ثان ، ومهم ، وضرورى للتوبة النصوح .

الركن الثالث : أمر يتعلق بالجوارح ، وهو أن يقلع بالفعل عن المعصية التى كان يقترفها من قبل ، هذا الندم وذلك العزم لابد من أن يكون لهما أثر ، أثرهما هو الإقلاع عن المعصية ، والبعد عنها ، وكراهيتها ، وكلما ذكرها سأل الله المغفرة ، ورجاه الجنة ، وخاف النار ، هذا هو شأن الإنسان المؤمن التائب : أن يقلع بالفعل عن المعصية .

بل لا يكتفى بالإقلاع ، ولكنه يعمل الصالحات فى مقابل السيئات التى اقترفها ، حتى يبدل الله سيئاته حسنات ،وقد جاء فى الحديث : « واتبع السيئة الحسنة تمحها »(٢) ، وصدق الله العظيم : ﴿ . . . إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ . . . ﴾(٣).

وليحاول أن يمحو السيئات بأضدادها من الحسنات ، إذا كان قد أكل مالاً من حرام ، يحاول أن يتصدق بمال من حلال ، إذا كان كثير الغيبة للناس . . . يذكرهم بسوء ، يجعل لسانه يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ويذكر أهل الخير فى كل مجلس بما يستحقون ، إذا كان قد فعل معصية معينة يحاول أن يعمل طاعة بضدها ، إذا كان

---

(١) الإسراء : ٢٥ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه عن أبى ذر ومعاذ بن جبل ، وأوله : « اتق الله حيثما كنت . . . وآخره : وخالق الناس بخلق حسن » ورواه أحمد (٥/ ١٢٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦) والدارمى (٢/ ٣٢٣) وهو من أحاديث الأربعين النووية ، وأفاض ابن رجب فى شرحه فى الحديث الثامن عشر من (جامع العلوم والحكم) .

(٣) هود : ١١٤ .

OBEIKANDI.COM

يقرأ كتبًا رديئة يحاول أن يقرأ كتبًا دينية وكتبًا صالحة ، إذا كان ينشر الفاحشة يحاول أن ينشر الفضيلة ، وهكذا يحاول أن يجدد إيمانه من جديد ، القرآن الكريم يقول : ﴿ . . . إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . . ﴾ (١) ، دائمًا تقترن التوبة بالإيمان والعمل الصالح .

لماذا قال : « تاب وآمن » ؟ لأن المعاصى - وخصوصًا الكبائر - تخدش الإيمان، وتنال منه ، على قدر المعصية وكبرها ، وإذا تاب الإنسان يحاول أن يجدد إيمانه ، وأن يبنى هذا الإيمان من جديد ، ولذلك جاء فى الحديث الصحيح المتفق عليه : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٢) ، أى ليس مؤمنًا الإيمان الحقيقى . . . الكامل . . . الصادق .

هذه الكبائر خدشت من إيمانه وجرحته ، فهو لا بد أن يداوى هذه الجراح وهذه الكلوم بالتوبة وبالإيمان .

« آمن وعمل عملاً صالحًا » يعمل الأعمال الصالحات بعد أن كان يعمل الأعمال السيئات ، فهذا هو الأمر الإيجابى ، أن يبدأ فيعمل الأعمال الصالحة يملأ بها صحائفه من جديد .

هذه هى التوبة النصوح : ندم ، وعزم ، وإقلاع .

إذا فعل ذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى أهل لأن يتوب عليه ، وأن يجعله من أهل محبته : ﴿ . . . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣) ، قال بعض الصالحين : سألت الله عدة سنين أمرًا سهلاً ولم أره استجاب لى ! فقال له بعضهم: وماذا سألته ؟ قال : سألته أن يتوب علىّ . . . أن يرزقنى توبة نصوحًا ، قال : أتظن هذا الأمر سهلاً أو هينًا ؟ أتدرى ماذا تسأل الله ؟ إنك تسأله أن يحبك،

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة ، وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٥١ ، الحديث ١٣٩٩) .

(٣) البقرة : ٢٢٢ .

OBEIKAN.COM

إنك تطلب محبة الله ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، فأنت تطلب درجة من الدرجات العلى . . . منزلة من المنازل التى لا تتطاول إليها الأعناق : أن يحبك الله ، وإذا أحبك الله كان سمعك الذى تسمع به ، وبصرك الذى تبصر به [١] . . أصبحت ربانيًا .

التوبة : ندم ، وعزم ، وإقلاع ، هذه أركان التوبة .

أما شروطها فهى : أن ترد المظالم إلى أهلها ، والحقوق إلى أصحابها .

تنقسم الذنوب إلى أقسام : صغائر ، وكبائر .

الصغائر تكفرها الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان[٢]، بل الصغائر يكفرها مجرد اجتناب الكبائر ، كما قال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾[٣] ، أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة .

ولكن الكبائر نوعان : حقوق لله ، وحقوق للعباد .

هناك حقوق لله عليك تتعلق بترك المأمورات ، مثل أن تكون قد تركت الصلاة ، أو تكون قد تركت الصيام ، أو نحو ذلك ، وهناك حقوق لله تتعلق بفعل المحظورات ، إذا تركت المحظورات تائبًا إلى الله ، فقد ابيضت صفحتك ، أما ترك المأمورات ففيه كلام وكلام ، السنوات التى مرت من عمرك دون أن تصلى ، أو دون أن تصوم ، ماذا تصنع فيها ؟

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى أحب إلى مما افترضته عليه ،ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » وهو الحديث الثامن والثلاثون من الأربعين النووية.

(٢) يومىء إلى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد تقدم ذكره فى ص ٢٧ .

(٣) النساء : ٣١ .

OBEIKAN.COM

هنالك اختلف العلماء : هل يؤدى كل ما فاته ، ولو كانت **عشرات** السنين ؟ وكيف يستطيع ؟ وهناك رأى يقول : إن ما فات قد انتهى ، **ولا أمل فى أن** يقضى ما فات .

معركة جدلية بين المذاهب المختلفة فى قضاء الفوائت من **الصلاة والصيام** ، ولعل الرأى الذى أرجحه ، هو الرأى الذى يقول : إذا كان قد مضت عليه سنوات وسنوات ، فالأولى أن يكثر من الطاعات ومن النوافل ، ويحرص بقية عمره على أداء الفرائض على أكمل وجه ، ويستغفر الله لما مضى ، لعل هذا هو الأولى وخصوصًا فى قضاء الصلوات .

وأما حقوق العباد فهى المشكلة ، كيف تتوب وفى رقبتك حقوق للعباد ؟ ولا يمكن أن تقبل التوبة والعباد يطالبونك بحقوقهم ، وخصوصًا الحقوق المالية ، ومنها حق الزكاة ، لأن الزكاة حق لله وحق للفئات التى جعلها الله أهلاً لها ، من الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل .

لكى تصح توبتك ، لا بد أن تحسب ما مضى من السنين من زكاة لم تؤدها ، امسك قلمًا ودفترًا ، أو هات آلة من الآلات الحاسبة ، واحسب أموالك بالتقريب ، كم عليك فيما مضى من السنين ؟

هل صحت توبتك فتخرج ما عليك أيًا كان المبلغ ؟ أم أن الدنيا تصبح أكبرعندك من الآخرة ؟ فإذا وجدت المبلغ كبيرًا تركت التوبة ، إذا كان المال أعز عندك من الجنة، فافعل ذلك ، وإذا كانت الجنة أعز وأغلى ، فأخرج من مالك ما وجب عليك ولو عشت فقيرًا .

حقوق الناس ، إذا كنت تعرف أصحاب هذه الحقوق فردّ إليهم حقوقهم ، وإذا كانوا قد ماتوا فردّ إلى ورثتهم .

الحقوق المالية فى الإسلام لا تسقط بالتقادم ، لا تسقط بمضى السنين ، ليس بعد عشر سنين ، ولا عشرين ، ولا ثلاثين ، تقول : هذا انتهى ، لا ، سيظل فى رقبتك ، ابحث عن أصحابه ، فإذا أعياك أمرهم ولم تعرفهم ، أو كانوا غير محصورين ، كالتاجر الذى يغش ، أو يبيع ويطفف ، أو . . . أو . . . إلخ ، ظلم ألوف الناس فى عمره ، ماذا يصنع فى هذا ؟

OBEIKAN.COM

إنه يحسب هذه المظالم بالتقريب ، ويتصدق بذلك عن أصحابها لا يتصدق عن نفسه ، لأنه ليس هو مالك المال الحرام ، هذا المال الحرام ملك أهله وأصحابه ، ولكن يتصدق عنهم ، كما فعل ابن مسعود رضى الله عنه ، حيث اشترى جارية من رجل ، ودخل يزن له - وكانت النقود الفضية توزن فى ذلك الوقت - فلما خرج بحث عن الرجل فلم يجده ، ونادى : يا صاحب الجارية . . . يا رجل ، وظل يبحث عنه سنين حتى يئس منه ، ثم قال : اللهم إنى أتصدق بثمن الجارية عن هذا الرجل ، فإن رضى يوم القيامة فله أجر هذه الصدقة ، وإن لم يرض فأجرها لى ، وليأخذ من حسناتى بقدرماله ، هكذا فعل ابن مسعود رضى الله عنه .

يوم القيامة يتعامل الناس بعملة واحدة ، ليس هناك درهم ولا دينار ، ولا ريال ، ولا دولار ، العملة الوحيدة فى ذلك اليوم هى الحسنات والسيئات ، ولا بد لكل إنسان أن يأخذ حقه ، لا تسامح ولا تنازل ، فهو يوم الأنانية والفردية ﴿ . . . لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا . . . ﴾ (١) . كل امرىء يقول : نفسى نفسى ، لا يتنازل عن الحسنة فلعل ميزانه ينقصها .

ولذلك فكل واحد يطلب حقه ، وممم يأخذ الحق ولا نقود ، ولا فلوس ، إلا هذه الحسنات والسيئات ؟ فإما أن يأخذوا من حسناتك حتى يستوفوا حقوقهم ، وإما أن يحملوك من سيئاتهم إذا عجزت حسناتك عن الوفاء بالحقوق .

لا بد من رد الحقوق إلى أهلها ، جاء عن النبى ﷺ أنه قال : « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » (٢) . الشهيد الذى يقتل فى سبيل الله تكفر عنه خطاياه ، الشهادة مكفرة للذنوب ، الشهادة فى سبيل الله أعلى ما يتمناه المؤمنون ويحرصون عليه ، ولكنها تكفر الذنوب إلا شيئًا واحدًا ، كما قال النبى ﷺ : « إلا الدين » ، وفى الحديث : إن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بالله ، أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله

---

(١) لقمان : ٣٣ .

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣٩٨ ، الحديث ٧٣١) .

OBEIKAN.COM

تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » ثم قال رسول الله ﷺ : « كيف قلت ؟ » قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، إلا الدين ، فإن جبرائيل قال لى ذلك» (١) ، جبريل استدرك على النبى ﷺ وصحح له : إن الشهادة فى سبيل الله تكفر كل الذنوب وتمحوها إلا الديون .

حقوق العباد المالية هذه خطيرة ، فى غاية الخطورة ، الحقوق التى للعباد ينبغى أن ترد .

الحقوق الأدبية يمكن للإنسان أن يعوضها بالاستغفار لهم ، والثناء عليهم ، والدعاء لهم ، أما الحقوق المالية فإما أن يدفعها إليهم ، أو إلى ورثتهم ، أو يتصدق بمثلها (٢) ، أو يستحلهم .

ما معنى : يستحلهم ؟ يذهب ويقول له : يا أبا فلان ، فى أيام طيشى وغرورى وبعدى عن الله أخذت منك شيئًا ، أو نلت منك كذا ، وأنا أرجو أن تسامحنى ، فإذا سامحه فقد تنازل عن حقه ، وله أجره عند الله ، وإلا فلا بد من الوفاء ، وإن عجز وصدقت نيته وتوبته ، فإن الله أهل يرضى عنه خصومه يوم القيامة .

التوبة ليست كلامًا يقال .

هناك ذنوب لها أهمية خاصة : الذين يذنبون ولا تموت معهم ذنوبهم ، يالخسران هؤلاء ، طوبى لمن إذا مات ، ماتت معه ذنوبه ومعاصيه ، وويل لمن يموت وتظل ذنوبه مستمرة .

أنظروا إلى أصحاب الأفلام والمسلسلات والأغانى والكتب المليئة بالكفريات والضلالات ، مات أصحابها ولكنها لا تزال تعمل فى إفساد الناس ، أفرادًا

---

(١) رواه مسلم وغيره عن قتادة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٩٩ ، الحديث ٧٣٢) .

(٢) إذا مات أصحابها ولا وارث لهم ، أو بحث عنهم فلم يجدهم .

OBEIKAN.COM

وجماعات ، هذا هوالخطر ، ولذلك على هؤلاء أن يتوبوا مسارعين مبادرين ، قبل أن يصبح الأمر خطيرًا .

كم يصعب علىّ أولئك الذين ينتسبون إلى الفن ، من الرجال والنساء ، ثم تدركهم الصحوة فى يوم من الأيام فيتوبوا إلى الله ، ما موقفهم وهم ينظرون فى التلفازات وفى السينمات أنفسهم شبه عرايا ، وفى المجون والخلاعة والفجور ، ماذا يفعلون ؟

كيف تكون هذه التوبة ؟ إنه لا بد لها من عمل صالح مقابل هذه الأعمال السيئة .

الذى أضل الناس بكفره ... بقلمه ... بكتبه ... بمقالاته ، هذا إذا أراد أن يتوب ، يتوب ولكن فكره المضلل المفسد المدمر ما زال يعمل عمله ، ومن هنا لا يكفى أن يتوب حتى يخطىء نفسه ، ويتبرأ من تلك الكتب ، ويحاول منعها ما استطاع ، كما فعل بعض الفنانين والفنانات : حاولوا أن يشتروا الأشرطة التى فيها الفساد القديم ، وأحيانًا لا يستطيعون ذلك ، لأنها بيعت طيلة العمر ، ولم تعد ملك أيديهم ، فيعجزون عن عمل شىء ، والله أعلم بمدى صدقهم ومدى عجزهم ، وهو أهل المغفرة .

الله تعالى قال فى توبة الكاتمين للعلم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ ، أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) . لا تقبل توبتهم ما لم يصلحوا ويبينوا ، أما أن يقول أحدهم : تبت ، ولا يزال ما فات كما فات ، فهذه ليست توبة .

لا بد من إصلاح وتبيين ، يبين فيه ضلال نفسه أمام الناس ، ويعتذر على الملأ ، وقد فعل ذلك بعض الكتاب الشجعان .

التوبة ليست كلمة تقال ، ولا دعوى تدعى ، التوبة عمل عظيم ، تغيير فى حياة

---

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ .

OBEIKAN.COM

الإنسان ، تغيير يتغير كل شيء فيه : فكره ، وقلبه ، وعمله ، وسلوكه ، وحياته كلها ، هذه هى التوبة .

ولذلك علامة فى التائب : أن تجده قد غير أصحابه . . . (الشلة) القديمة . . . إخوان السوء . . . شياطين الإنس ، الذين يشوشون عليه عزمه ، ويصدونه عن سبيل الله ، ويزينون له المعاصى .

لا بد له أن يغير هؤلاء ، ويغير مجلسه ، ويغير بيئته ، حتى يسلك فى عداد التائبين .

لقد قال الله تعالى عن التائبين : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

نسأل الله تعالى أن يتوب علينا توبة نصوحًا ، وأن يجعلنا من التائبين المتطهرين ، إنه عليم قدير وصلى الله على سيدنا محمد ، وادعو ربكم يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لا زالت إسرائيل الدولة المغتصبة المعتدية ، تعبث بحقوقنا ومقدساتنا ، رغم ما يدعى إليه مما يسمى (السلام) ، كيف يكون السلام وإسرائيل لا زالت متشبثة بمواقفها ؟! لا زالت تشن عدوانها فى جنوب لبنان ، وما زالت متشبثة بالبقاء لان ، ولا زالت تعمل عملها فى أبناء الحجارة ، وفى الضفة الغربية وغزة ، لا زالت تفعل الأفاعيل ، تسفك الدماء ، وتكسر العظام ، وتهتك الحرمات ، لا زالت إسرائيل تفعل هذا .

وآخر ما فعلت هو الاعتداء على المحكمة الشرعية الإسلامية فى القدس ،

---

(١) التوبة : ١١٢ .

OBEIKAN.COM

والاستيلاء على الوثائق المهمة ، التى تثبت ممتلكات المسلمين ، وممتلكات الأوقاف الإسلامية ، الممتلكات العامة ، والممتلكات الخاصة ، تريد ألا يبقى عند المسلمين أى شىء يدل على ملكيتهم ، ومع هذا ما زلنا نلهث وراء السلام .

هذه إسرائيل ، إسرائيل لا يمكن أن تؤدب إلا بالقوة ، وفلسطين لا يمكن أن ترد إلا بالقوة ، إلا بالجهاد ،هذا ما أعتقده ، هؤلاء المعتدون الظالمون لا يمكن أن يسكتهم إلا منطق القوة ، لا قوة المنطق .

الله سبحانه وتعالى ذكر هؤلاء الناس فى كتابه فى مئات الآيات ، لم يحدثنا عن فارس والروم إلا فى آيات معدودات ، أما بنو إسرائيل واليهود ، فقد حدثنا عنهم فى سور وسور ، وآيات وآيات ، لنكون على بصيرة من أمرهم ، وعلى بينة من مواقفهم ، حتى نعد أنفسنا للقائهم فى يوم من الأيام .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينير بصائر هذه الأمة ، وأن يهيىء لها من أمرها رشدًا ، وأن يجعل يومها خيرًا من أمسها ، وأن يجعل غدها خيرًا من يومها ، وأن يحسن عاقبتها فى الأمور كلها .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين ، اللهم اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى ، وقلوبها على التقى ، ونياتها على الجهاد فى سبيلك ، وعزائمها على عمل الخير ، وخير العمل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

هاذم اللذات .. الموت

● **الخطبة الأولى** :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كنا نتحدث عن التوبة ، ووجدنا من عوائق التوبة طول الأمل . . . التسويف . . . استبعاد الموت ، وهذه آفة قلما من سلم منها من الناس ، ولهذا كان العلاج لهذا أن يذكر الناس الموت ، وقد أوصانا رسول الله ﷺ بذلك حينما قال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » [(١)] ، وهو الذى يهذم اللذات ويقطعها ، ويفرق الناس عنها .

لا بد من ذكر الموت ، هذه حقيقة يهرب الناس منها ، ويحاولون أن يبعدوها عن أذهانهم وقلوبهم ، وأن يعيشوا ليومهم دون أن يتفكروا فى غدهم ، ولحياتهم دون أن يذكروا موتهم ، ولدنياهم دون أن يذكروا آخرتهم ، حتى أن أكثر الوعاظ والخطباء ، أصبحوا اليوم لا يذكرون الناس بهذه الحقائق ، بمعانى الآخرة ، بالموت وما بعده ، ومعظم أحاديثهم عن مشكلات المجتمع ، عما يعانيه الناس ، ولا بأس بذلك ، ولكن لا يعنى هذا أن تغفل هذه الحقائق الروحية ، وأولاها : أن الناس ولدوا ليموتوا .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى التـراب !

لهذا كان لا بد من التذكير بالموت ، وقد عقد الإمام الغزالى كتابًا فى إحيائه ، فى آخر (ربع المنجيات) من الإحياء [(٢)] ، كتاب : (ذكر الموت وما بعده) قال فى

---

(١) أخرجه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وإسناده حسن ، وله شواهد يصح بها (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٦١) .

(٢) أسس الإمام الغزالى كتابه (إحياء علوم الدين) على أربعة أرباع وهى : ربع العبادات، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

OBEIKAN.COM

مطلعه : جدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ،والجنة أو النار مورده ، ألا يكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له (١) .

جدير بالإنسان - وهذا مصيره . . . وتلك عاقبته - أن يتفكر فى هذا المغير ، الذى يغير عليه فجأة ، ويهاجمه بغتة ، وأن يجعل من ذكره جلاء لقلبه من صدأ الغفلة والقسوة ، كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيل : يا رسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت » (٢) ، لقد ترك فينا النبى ﷺ واعظين بليغين : ناطقًا وصامتًا ، فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت !

لا يعرف أحد متى يأتى الموت ، ولا أين يكون الموت ﴿ . . . وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣) ، وكذلك لَا تدرى أى زمن تموت : أتموت شابًا ، أم تموت كهلاً ، أم تموت شيخًا ؟ قد تبقى إلى السبعين ، وقد تبقى إلى المائة ، وقد تتجاوز المائة ، وقد تختطف فى ريعان شبابك ومقتبل عمرك ، قد تكون هذا وقد تكون ذاك ، المهم أنه ليس عندك صك بموعد الموت ، ولا تعرف متى يزورك (عزرائيل) .

كم اختطف الموت أبًا من بنيه ، وابنًا من أبيه ، وأخًا من أخيه ، وقريبًا من قريبه، وحبيبًا من حبيبه ، وقائدًا من جنده ، وأستاذًا من تلاميذه ، فلم يستطع أحد أن يدفع عنه بنفس ولا مال ولا جاه .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ، مذيلاً بتخريج الحافظ العراقى ، ط . دار المعرفة - بيروت، (٤/٤٤٨) .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (الإحياء : ١/ ٢٧٣) .

(٣) لقمان : ٣٤ .

OBEIKAN.COM

إن الحبيب من الأحباب مختلـــس ... لا يمنع الموت بواب ولا حـــرس

فكيف تفرح بالدنيـــا ولذتهـــا ... يا من يعدّ عليه اللفـــظ والنفـــس

أصبحت يا غافلاً فى النقص منغمسًا ... وأنت دهرك فى اللذات منغمـــس

لا يرحم الموت ذا جهـــل لغرتـــه ... ولا الذى كان منه العلـم يقتبـــس

فالموت باب وكل الناس داخله ، وكأس وكل الناس شاربه ، وحوض وكل الناس وارده ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (١) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٢).

قد تموت شابًا وقد تموت شيخًا ، ولكن النتيجة واحدة ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ومسؤول عنه ، عش مائة سنة ، أو عش ألف سنة ، أليس آخرها الموت ؟

وإذا كان آخر العمر موتًا ... فسواءٌ قصيره والطويـــل

وكل من يموت سيأتى ساعة الموت ، ويقول : لو أنى أُبقيت قليلاً لأزيد من عمل الصالحات ، إن كان من أهل الصالحات ! أو أعمل صالحًا إن كان من المفرطين ! وهيهات هيهات . . . هيهات هيهات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

إذا جاء الأجل فلا تأخير ﴿ . . . فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤) ، والساعة هنا ليست الساعة الفلكية . . . ستين دقيقة ، الساعة

---

(١) العنكبوت : ٥٧ .
(٢) آل عمران : ١٨٥ .
(٣) المنافقون : ٩ - ١١ .
(٤) الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١ .

هى اللحظة من الزمن ، لا يستأخر لحظة من الزمن ولا يستقدم . العمر أيام معدودة وأنفاس محدودة ، لا بد أن تنتهى بالموت .

علامة الموت : الميلاد ، إذا ولد الإنسان كان ذلك علامة على أنه سيموت ، وكل يوم ينقضى من عمره ، فقد طويت صفحة من كتابه ، ولهذا نعجب من الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم ، وكان الأولى أن يتفكروا فى يوم الميلاد ، قرب آجالهم ، ونقص أعمارهم ، فكل سنة تنقضى جدار يتهدم من بنيان العمر .

ونفرح بالأيام إما تصرمـــــت على أنها من عمرنا تتصـــــرم
إنّا لنفرح بالأيــام نقطعهـــــا وكل يوم مضى جزء من العمر

كان الحسن البصرى يقول : (يا ابن آدم ، إنما أنت أيام مجتمعة ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك) ، أنت مجموعة أيام ، كلما ذهب يوم ذهب جزء منك ، حتى يذهب كلك .

الموت حوض مورود لكل الناس ، لم ينج منه نبى ، ولا ولى ، ولا ملك ،ولا أمير ، لا أهل الدين ولا أهل الدنيا .

الأنبياء ذاقوا مرارة الموت ، على ما لهم عند الله من عظيم المنزلة ، قالوا : إن نوحًا عليه السلام ، وهو أطول الأنبياء عمرًا ، عمر فى الدنيا أكثر من ألف سنة ، لبث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، عدا السنين التى قبل النبوة ، والسنين التى عاشها بعد الطوفان (١) ، وقد حكوا أن ملك الموت حينما جاءه ليتوفاه، سأله ، يا أطول الأنبياء عمرًا ، كيف وجدت الدنيا ؟ قال : وجدتها كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما ، وخرجت من الآخر .

هكذا الدنيا ، الأنبياء ذاقوا كأس الموت .

يوسف عليه السلام لقى فى الدنيا ما لقى من محن ومنح ، ثم أتاه الله الملك ، وجعله على خزائن الأرض ، ثم كان مصيره ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ

---

(١) يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

OBEIKAN.COM

آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، وهذا ما ينبغى أن يفكر فيه المؤمن ، أن يتوفاه الله مسلمًا ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهكذا كان المؤمنون يدعون : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، هكذا كان همهم .

وخير الأنبياء وخاتمهم وخيرة الله من خلقه : محمد ﷺ خاطبه الله بقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) ، وقال مخاطبًا له : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤) .

كان رسول الله ﷺ يعانى سكرات الموت ، وكان عنده قدح من ماء ، فكان يأخذ منه ، يمسح بهذا الماء وجهه ويقول : « اللهم أعنى على غمرات الموت ، أو على سكرات الموت » (٥) ، محمد ﷺ يدعو الله بهذا ويقول : « إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » (٦) ، وبجواره ابنته فاطمة - رضى الله عنها - تبكى وتقول : واكرب أباه ، فيقول لها النبى : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » (٧) .

مات رسول الله ﷺ ، ومات أصحابه .

أبو بكر - رضى الله عنه - حضرته الوفاة ، فجلست بجواره عائشة - رضى الله عنها - فأنشدت قول القائل :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

---

(١) يوسف : ١٠١ .
(٢) الأعراف : ١٢٦ .
(٣) الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥ .
(٤) الزمر : ٣٠ ، ٣١ .

(٥) رواه الترمذى فى الجنائز (٩٧٨) وقال : حسن صحيح غريب ، وفى بعض النسخ : غريب فقط ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبى (٢/ ٤٦٥) وفى سنده عندهم : موسى بن سرجس ، قال فى التعريف : مستور .

(٦) متفق على صحته من حديث ابن مسعود (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٤٣ ، حديث ١٤٣٢) .

(٧) رواه البخارى وغيره من حديث أنس بن مالك فى كتاب المغازى ، باب : مرض النبى ﷺ ووفاته ، الحديث (٤٤٦٢) (فتح البارى : ٧/ ٧٥٥) ط . دار الريان للتراث - القاهرة .

OBEIKAN.COM

فقال لها أبو بكر مصححًا لها : ذاك رسول الله ﷺ ، ثم أنشدت قول الشاعر ، وكانت ممن يحفظ من الشعر الكثير :

لعمرك ما يغنى الثـــــراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أى الروح إذا بلغت الحلقوم ، فقال لها : بل قولى ما قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) ، وهو فى هذا الوقت يصحح المفاهيم ، ويقول لها : يدل على أن تذكرى الشعر اذكرى القرآن .

هكذا ينبغى أن يكون الإنسان ذاكرًا لربه فى هذا الوقت ، ذاكرًا لكتابه ، خائفًا من ذنبه ، راجيًا رحمة ربه .

دخل النبى ﷺ على شاب يحتضر فقال له : « كيف تجدك » ؟ قال : أرجو الله يا رسول الله ، وإنى أخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمنه مما يخاف » (٢) ، مادام الإنسان فى مثل هذا الموطن يرجو ويخاف ، يرجو المغفرة ويخاف عاقبة الذنوب ، فإن الله سبحانه وتعالى سيكون عند حسن ظن عبده به ، سيؤمنه مما يخاف ، ويعطيه ما يرجو .

ومرض أحد الصالحين مرض الموت ، فعاده بعض أصحابه فقالوا له : أى شىء تشتكى ؟ قال : أشتكى مما خلفت من ذنوبى ، قالوا له : وأى شىء تشتهى ؟ قال: لا أشتهى إلا مغفرة ربى ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيبًا ؟ قال : الطبيب هو الذى أمرضنى .

هكذا كانت قلوب معلقة بالله عز وجل ، فكل ما يشغلها هو لقاء الله ، وذنوبها التى خلفت ، ومغفرة الله التى ترجوها .

---

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، وقال : حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وذكره الألبانى فى صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٨٧٥ ، الحديث ٢١١٢) .

OBEIKAN.COM

الموت لم يدع نبيًا ، ولم يدع وليًا ، ولم يدع خليفة ، ولم يدع ملكًا ، ولم يدع أميرًا ، ولم يدع غنيًا ، ولم يدع فقيرًا ، كلهم ورد حوض الموت .

قالوا : إن هارون الرشيد أصابه المرض ، فعرض بوله على أحد الأطباء ، وهو لا يعرف أن هذا للرشيد ، فقال : صاحب هذا البول ميؤوس منه ، وبلغ ذلك الرشيد ، فقال :

إن الطبيب له علم يـدل بـــه ما دام فى أجل الإنسان تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام مهلتـه حار الطبيب وخانته العقاقيـر!

الطبيب إنما ينفع طبه ما دام هناك فى الأجل متسع ، ولكن إذا حان الأجل ، إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء ، وحار الأطباء ، وكان لا بد من اللقاء .

أُعطى الشاعر ابن الرومى دواء غلطًا ، فكان سببًا فى موته ، ولما لام الناس الطبيب الذى وصف له الدواء قال :

غلط الطبيب علىَّ غلطة مـوردٍ عجزت موارده عن الإصـــدار

والناس يلحون الطبيب ، وإنما غلط الطبيب إصابةَ الأقـــدار

الطبيب غلط ، ولكن القدر لم يغلط ، كان لا بد من أن يموت .

إذا جاء الموت لم ينفع طب ، ولم ينفع دواء ، ليس معنى هذا أن نترك الدواء ، لا بأس أن نتداوى ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الشفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله [1] . ولكن الدواء ينفع ما دام فى الأجل بقية ، فإذا جاء الموت لم ينفع شىء .

نظر الرشيد إلى أكفانه فقال : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ [2]،

---

(١) فى الحديث عن ابن مسعود يرفعه : « إنّ الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » أخرجه أحمد ، وابن ماجه ، وإسناده صحيح ، وصححه البوصيرى فى زوائده ، والحاكم ، ووافقه الذهبى (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط ٤/ ١٣ - ١٤) .

(٢) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩ .

OBEIKAN.COM

وابنه المأمون حينما جاءه الموت ، كان يدعو الله ويقول : يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه ! وقالوا عن عبد الملك بن مروان : أنه حينما مرض مرض الموت ، نظر إلى غسال كان يغسل الثياب بيده فى دمشق فقال : ليتنى كنت غسالاً ، آكل من كسب يدى يومًا بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئًا ! فبلغ ذلك الإمام (أبا حازم) فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه !

يتمنى هؤلاء عند الموت أن يكونوا غسالين أو عمالين ، ولم يلوا أمر هذه الدنيا ، ولا ملكها .

نظر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى يومًا إلى المرآة ، فأعجبته صورته ، وأعجبته نفسه ، وقال فى غرور : أنا الملك الفتى . . . الملك الشاب ، ونظر إلى جارية له يبدو أنها من الصالحات ، فقال : ما تقولين فىّ ؟ فأنشدت تقول :

أنت نعم المتاع لو كنت تبـقى غير أنْ لا بقاء للإنســـــان !

ليس فيما رأيته فيك عيـــــب كان فى الناس غير أنك فان !

هكذا الملوك ، هكذا الخلفاء ، هكذا الأغنياء [1] .

هل رأيتم أحدًا استطاع أن يؤخر الموت يومًا ، أو ساعة ، أو بعض ساعة ؟ هل استطاع ذو سلطان أن يرهب ملك الموت بسلطانه ؟ هل استطاع غنى أن يرشو (عزرائيل) بشىء من ماله ؟

لا والله ، أخذهم الموت أخذًا ، لم يدع كبيرًا ولا صغيرًا ،ولا غنيًا ولا فقيرًا ، ولا نبيًا ولا وليًا ، ولا ذا سلطان أو ذا ثروة ، كلهم أكلهم الموت .

اذهب إلى المقابر ، ماذا تجد فيها ؟ اذهب إلى وادى الموتى ، ستجد الكل متساوين فى ظاهر الأمر ، الكل قد ضمتهم القبور ، تركوا القصور إلى القبور ، تركوا النعيم إلى أعمالهم ، إلى مجازاة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) من أراد معرفة المزيد من أخبار المحتضرين من الخلفاء والصالحين ، فليرجع إلى كتاب : (ذكر الموت وما بعده) من (إحياء علوم الدين) للغزالى .

OBEIKAN.COM

هل يتذكر الناس ذلك ؟ هل يتعظ الناس بالموت ؟ هل يتعظ الناس بمن مات من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأقربائهم وأحبائهم ؟ كم ودعنا من الناس ؟ كم ودعنا من أحبة ؟ كم ودعنا من أقرباء ؟

ولكن الناس لا يذكرون الموت ، كأنهم يظنون أنهم فى الدنيا مخلدون ، إنها الغفلة ، إنه طول الأمل ، وطول الأمل هو الآفة .

الموت قريب ، وأقرب مما يتصور الناس ، وكل آت قريب ، قد يكون كلمح البصر أو هو أقرب ، قد يأتى عليك الصباح ولا يأتى عليك المساء ، وقد تمسى ولا تصبح ، وقد تلبس الثوب ولا تستطيع أن تخلعه ، وإنما تخلعه يد غاسلك ، وقد تخرج من البيت حاملاً ولا تعود إليه إلا محمولاً .

هل نعرف هذا كله ؟ هل نذكر الموت ؟ هل يذكّر بعضنا بعضًا بالموت ؟ إنّ الموت هاذم اللذات ، ولكن الناس لا يذكرونه .

الموت قريب وقريب جدًا ، وخاصة فى عصرنا الذى يختطف فيه الموت الناس وهم أصحاء ، بالسكتة ... بالذبحة ... بآفة من الآفات المرضية التى أصبحت من آفات هذا العصر ... بحادثة من حوادث الطرق ، بهذا أو بغيره .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحـد

الموت آت لا يستطيع أحد أن يفرّ منه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ... ﴾ (١) ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴾ (٢) ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ... ﴾ (٣) ، ما دام الأجل قد انتهى فالموت آت .

كان هناك وباء فى بلد ، فخرج ابن لأعرابى من هذا البلد فرارًا من الموت الذى فيه ، وذهب إلى بلد آخر ، وفى الطريق أوى إلى ظل شجرة . فلدغته أفعى فمات ، فقال أبوه :

---

(١) الجمعة : ٨ . (٢) النساء : ٧٨ . (٣) آل عمران : ١٥٤ .

OBEIKAN.COM

راح يبغى نجـــوة من هالك فهلـك
والمنايا راصــدات للفتى حيث سلك
كل شيء قاتـــل حين تلقى أجلـك

أجل ، كل شيء قاتل ، حين ينتهى الأجل ، بعثرة طريق ، بضربة شمس ، بأدنى شيء .

المهم أن تستعد للموت ، كما جاء فى الحديث : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » [1] ، الكيس : العاقل ، من حاسبها ، وعمل لما بعد الموت : أعد للأمر عدته ، وأخذ له أهبته ، حتى لا يسير بغير زاد .

تزود للذى لا بد منـــــه فإن الموت ميقات العبـــاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغيـــــر زاد

أترضى أن تسافر بغير زاد ، وخصوصًا إذا كان رفقاؤك فى السفر لا يعطونك من زادهم شيئًا ؟ يوم القيامة لا يعطى أحد لأحد : ﴿ لا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِه وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِه شَيْئًا . . . ﴾ [2] ، فهل أعددت زاد الآخرة؟ هل أعددت الزاد لما بعد الموت ؟

لا بد من أن نتذكر الموت ، لا بد من أن نجعله نصب أعيننا « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » [3] ، بل من يدرى لعلك تموت اليوم قبل الغد ، فلا بد من أن توازن بين الدنيا والآخرة ، وأن تأخذ من حياتك

---

(١) تتمة الحديث : « والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » فى إسناده (بقية ابن الوليد) وهو مدلس ، ولكنه صرح بالتحديث ، كما فى حديث ابن ماجه ، وهو عند الترمذى بإسناد آخر وقال : حديث حسن ، ورواه الحاكم وقال : صحيح ،ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٨٦٩ ، الحديث ٢٠٩٠) .

(٢) لقمان : ٣٣ .

(٣) صح هذا من كلام الصحابة رضى الله عنهم مثل ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ،ولم يصح مرفوعًا إلى النبى ﷺ .

OBEIKAN.COM

لموتك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن صحتك لسقمك ، هذا هو شأن الإنسان المؤمن.

أكثروا من ذكر هاذم اللذات ، أكثروا من ذكر الموت .

والناس صنفان :

صنف يعيشون غافلين ، لا يفكرون إلا فى دنياهم . . . إلا فى شهواتهم . . . إلا فى مصالحهم العاجلة ، لا ينظرون إلى الغد ، ولا يفكرون فيما يأتى بعد ، هؤلاء هم الغافلون ، هؤلاء هم الذين لم تستيقن قلوبهم بالآخرة ، لو كانوا موقنين بالآخرة لغيروا طريقة تفكيرهم .

وهناك صنف آخر ، يعلمون أن مع اليوم غدًا ، وأن غدًا لناظره قريب ، وأن كل امرىء مصبح فى أهله ، والموت أقرب من شراك نعله ، وأن الموت آت لا بد منه ، لهذا يستعدون للموت ، فإذا جاءهم لم يخافوا ، ولم يحزنوا ، لأنهم تهيأوا له ، واعدوا له الزاد ، ولأنهم يعلمون أن الموت ليس عدمًا صرفًا ، ولا فناء محضًا ، لو كان الموت عدمًا لم يخلقه الله ، وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . ﴾ (١) ، لو كان الموت عدمًا ما خلقه الله .

الموت مرحلة ، مرحلة انتقال ، كما جاء عن عمر بن عبد العزيز : إنما خلقتم للأبد (أى للخلود الأبدى) وإنما تنقلون بالموت من دارٍ إلى دار ، من دار الغرور إلى دار السرور ، أو الحزن ، هى سرور لأناس وحزن على آخرين ، من دار الفناء إلى دار البقاء ، من دار المفر إلى دار المقر .

وما الموت إلا رحلة غير أنهـــــا من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

هؤلاء لا يخافون الموت ، إنهم يعلمون أنهم خلقوا للآخرة ، خلقوا للخلود ، وإلا ما كان لهذه الدنيا معنى ، ولا كان لها طعم ، لو كانت هى المقر ، لو كان لا شىء بعد الموت ، كما قال الدهريون : إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض

---

(١) الملك : ٢ .

OBEIKAN.COM

تبلع، ولا شيء بعد ذلك : ﴿ . . . نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ . . . ﴾[1] لو كان الأمر كذلك ، لكانت الحياة كلها بَاطلاً ، والله تعالى قد نفى ذلك وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[2] ، هيهات ، لا يستوى المتقون والفجار ، ولا يستوى المؤمنون والكفار ،ولا يستوى الأخيار والأشرار ، كل سيجزى بعمله .

فكروا فى الموت ، أذكروا هاذم اللذات ، أذكروه عسى أن تترطب قلوبنا ، وتلين فى قسوتها ، كان بعض السلف قد حفر فى بيته حفرة أشبه بالقبر ، كلما قسا قلبه نزل فرقد فيها ، وأغمض عينيه ، وخيل إلى نفسه أنه مات ، ثم قال : ﴿. . . رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا . . . ﴾[3] ، ثم يفتح عينيه ويقول : ها يا نفس ، ها أنت فى الدنيا الآن فمالكَ لا تعملين ؟ .

أنتم فى الدنيا ممكنون من العمل . . . أكثر من يغبطهم أهل القبور أهل المساجد، يقولون : ليتنا ، نسبّح كما يسبّحون ، ونذكر الله كما يذكرون ، ونصلى كما يصلون.

اغتنموا العمر ، اغتنموا الوقت ، قبل أن يفوت الأوان .

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن خشعت قلوبهم ، ولانت أفئدتهم ، وتذكروا آخرتهم ، اللهم آمين .

أذكروا الله تعالى ، واستغفروه يستجب لكم .

---

(١) الجاثية : ٢٤ ، ونصُّها : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ .

(٢) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) يتمثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] .

OBEIKAN.COM

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الإخوة :

ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر . اللهم أعنا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة ، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن ، واجعل كلمة الإسلام هى العليا ، وكلمة أعداء الإسلام هى السفلى .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١) ﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (٣) أقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الحشر : ١٠ . (٣) الأحزاب : ٥٦ .

OBEIKAN.COM

شؤم المعصية

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

كان السلف الصالح رضى الله عنهم ، إذا نزل بأحدهم بلاء أو شكا من أمر من أمور الدنيا حل به ، رجع فى ذلك إلى نفسه ، وعاد باللائمة عليها ،وقال : لا بد أنى قد أذنبت ذنبًا ، لا بد أنى قد قصرت فى حق الله تعالى ، لا بد أنى فرطت فى جنب الله ، ظلمت عبدًا من عباد الله ، ضيعت فريضة من فرائض الله ، انتهكت حرمة من حرمات الله ، فسرعان ما يرجع إلى ربه ويقرع بابه تائبًا مستغفرًا ، ويقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء ، حينما أخرجا من الجنة : ﴿ . . .رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

هذا شأن الإنسان المؤمن ، إذا أصابه خير ردّ الفضل إلى الله ، وقال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإذا أصابه شر لم يلم إلا نفسه ، ولم يتهم إلا نفسه : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٢) .

هكذا كان شعارهم ، وهكذا كان ديدنهم ، هذا هو شأن المؤمن ، أن يرجع كل فضل إلى الله تبارك وتعالى ، فهو صاحب الفضل والنعمة : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . ﴾ (٣) ، وأن يرجع كل شر إلى نفسه .

كان بعض السلف رضوان الله عليهم يقول : إنى لأرى شؤم معصيتى فى سوء خلق امرأتى ودابتى ، يعنى إذا نكدت عليه امرأته ، أو حرنت عليه دابته ، يقول : لا بد أنى قد ارتكبت معصية من المعاصى .

كل شىء كانوا يعودون به إلى شؤم المعصية ، فللمعاصى آثارها الوخيمة فى

---

(١) الأعراف : ٢٣ . (٢) النساء : ٧٩ . (٣) النحل : ٥٣ .

OBEIKAN.COM